المحاضرة السابعة:

التعليم العربي الحر بالجزائر

كانت الوضعية الثقافية في أسوء أحوالها لذا ركزت فرنسا عليها كونها كانت تهدف إلى محو معالم الشخصية الجزائرية، ولبلوغ ذلك عملت فرنسا منذ أن وضعت أقدامها في الجزائر بمحاربة التعليم العربي الإسلامي من خلال تجفيف منابعه عن طريق الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية باعتبارها الممول الرئيسي للنشاط الديني والتعليمي كونه يشكل عائقا في وجه المخطط الاستعماري.

1-مؤسسات التعليم الحر:

أ-الزوايا التعليمية الحرة:

كانت الزوايا مركزا لتعلم القرآن والعلم والتربية وحصنا للثقافة الإسلامية واللغة العربية ومدرسة للتربية الدينية والوطنية ومعقلاً للمجاهدين. انتشرت في مناطق عديدة من التراب الجزائري.

اختص أكثرها على تحفيظ القرآن الكريم وتعليم ما يستلزم من علوم لغوية وشرعية وتاريخية. وقد كانت الزوايا تمد المدارس والمعاهد والجامعات العربية بالعديد من الطلبة الذين كانوا من أبناء الزوايا والكتايب الذين نمت فيهم الروح الإصلاحية والوطنية مثل الأمير عبد القادر، الشيخ بوعمامة، ابن باديس، البشير الإبراهيمي، فضيل الورتلاني وغيرهم.

ومن بين هذه الروايا الزاوية الناصرية بمدرستها وجامعها الكبير بخنقة سيدي ناجي التي كانت إشعاع علمي ومعرفي طيلة قرنين أو أكثر، درس بها علماء من الأوراس وقسنطينة بل حتى من تونس وطرابلس. زاوية الهامل ببوسعادة، وزاوية اليلولية (عبد الرحمن اليلولي) بجرجرة، تدريس العلوم الإسلامية والعربية كالنحو والصرف، المعاني...الخ، ومن الشيوخ الذين درسوا بها المولود الحافظي الأزهري.

ب-التعليم المسجدي:

كانت للمساجد أهمية كبيرة تتعدى حدود القيام بالعبادات من خلال ما توفره من قيم دينية كالوعظ والارشاد، وتقوية الإيمان وتربية الأجيال تربية إسلامية، وتخريج العلماء والفقهاء. وعندما شعر الاحتلال بخطورتها أغلق العديد منها وجعل في بعضها من يخدم مصالحه. كما قام بتجفيف منابع تمويله بمصادرة الأوقاف.

محاضرات مقياس تاريخ الجزائر الثقافي 2

وبعد ظهور الحركة الاصلاحية أولت اهتماما كبيرا بالتعليم المسجدي لما له من مكانة وقدرة على استقطاب الجماهير من مختلف الأعمار، وقد تحولت المساجد إلى معاهد تعقد فيها حلقات الدروس العلمية بمختلف مستوياتها الإبتدائي، الثانوي والعالي (عرف بالتعلم المسجدي)، كانت تدرس به العلوم الدينية: الفقه، التفيسر، الحديث، العلوم الإنسانية، وقواعد اللغة العربية وآدابها.

ج–المدارس الحرة: وهي تلك المؤسسات التعليمية عربية اللسان، كانت تقوم بتعلم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن والتي انطلقت على يد أفراد وجماعات لنشر التعلم العربي الإسلامي سواء في المدن أو الأرياف.

وقد ظهرت بوادر إنشاء المدارس الحرة في 1913 بتبسة من طرف الجمعية الصديقة الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي برئاسة عباس بن حمانة. وكانت عدد المدارس في الجزائر وحواضرها وأريافها منتشرا وحتى بعد الاحتلال الفريسي للجزائر كان التعليم مزدهرا، ففي مدينة قسنطينة مثلا كان بها ما يزيد عن 35 مسجد و90 مدرسة يدرس فيها ما بين 1300– 1400 تلميد. في حين عدد طلبة الثانوي والتعليم العالي ما بين 600–700 تلميذ.

2–وضعية التعليم العربي الحر بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية:

يقصد بالتعليم العربي الحر بأنه ذلك التعليم الذي كان سائدا خلال فترة الاحتلال، والذي كان يجري في الزوايا والمدارس الحرة والكتاتيب والمدارس القرآنية، يقوم به الشعب تأسيسا وتمويلاً، لا يخضع لإدارة الاحتلال، ويرتكز على اللغة العربية ويختلف عن التعليم الحكومي الذي يجري باللغة الفرنسية وحدها. وكان المعلمون القائمون على هذا التعليم الحر غير النظامي يتقاضون رواتبهم من تبرعات الناس المتطوعين الراغبين في تعليم أبنائهم اللغة العربية، والدين الاسلامي، كان تعليما حراً لا تموله السلطات الفرنسية ولكن تراقبه سياسيا.

وقد ظهرت بوادر إنشاء المدارس الحرة في 1913 بتبسة من طرف الجمعية الصديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي برئاسة عباس بن حمانة. وتشير التقارير الفرنسية إلى أن التعليم في الجزائر، كان مزدهرا وكان عدد المدارس في الجزائر وحواضرها، وأريافها كبير جدا إلى أن الفرنسيون ذهلوا منه عند احتلالهم للبلاد، كما أن عدد التلاميذ كان مرتفعا كذلك، إلا أن هذ الوضعية تغيرت منذ دخول الفرنسيين للأراضي الجزائرية، فمثلا من الحواضر التي وصفتها التقارير الفرنسية مدينة قسنطينة، فقد كان بها ما يزيد عن 35 مسجد، 90 مدرسة يدرس فيها ما بين 1300 و1400

تلميذ، في حين عدد طلبة الثانوي والتعليم العالي من 600 إلى 700 تلميذ، كان هذا قبل الاحتلال الفرنسي. وكان تعليما تقليديا بسيطاً، لم يكن يتجاوز الفقه والتوحيد والنحو في معظم الأطوار والمراحل في عامة الزوايا والمساجد، وبالرغم من ذلك فقد سعت الإدارة الاستعمارية إلى هدم وغلق كل مدرسة ومسجد أو كتاب يدرس فيها.

وهكذا كان لدخول الفرنسيين إلى الجزائر سنة 1830م أثر كبير على الحياة الثقافية والتعليمية، فكان أول عمل قام به الفرنسيون فور دخولهم هو احتلال وهدم المساجد ومصادرة أوقافها، وتحويلها إلى (كنائس وثكنات،...الخ). فقد تناقص دور التعليم عن أداء مهامه لظروف الحرب من جهة، والاستيلاء على الأوقاف من جهة أخرى، غير أن المناطق الصحراوية التي كانت بعيدة عن الاحتلال في السنوات العشرين الأولى فقد استمرت في نشر رسالتها التعليمية.

ولم تكتف بذلك بل استهدفت اللغة العربية بضرب منابعها عن طريق إصدار قانون نص على منع اللغة العربية باعتبارها لغة أجنبية وفي هذا الصدد يذكر أبو القاسم سعد الله أن الفرنسيين جعلوا اللغة الفرنسية لغة رسمية، واكتفوا بتدريس الدارجة لضباط الجيش الفرنسي والراغبين في العمل الإداري من المدنيين الفرنسيين لضمان عملية التواصل.

وبالحديث عن المدرسين والعلماء فقد تدهور حالهم وافتقروا ونضب المصدر الذي كانوا يتلقون أجورهم والهدايا التي تعودوا على تسلمها من الفرد والأولياء فأصبحوا مضطرين إلى البحث على مصدر رزق، فاضطر العديد منهم إلى الهجرة طواعية أو إلى التهجير والنفي. هذه الظروف الاقتصادية والسياسية والعسكرية أثرت وأدت إلى انخفاض مستوى التعليم ونقص مدته والمواظبة عليه.

وعن الحالة التي وصل إليها التعليم غداة الاحتلال يضيف الدكتور أبو القاسم سعد الله فيقول:" لقد أهمل التعليم في المدن والأرياف على السواء لأسباب مختلفة منها اغتصاب موارده، وكثرة الحروب، ومشاركة الطلبة في الجهاد، وبعد ضعف التعليم في المدن بقي التعليم في الزوايا والمعمرات، فخرج إليها التلاميذ طلبا للعلم والمقاومة الثقافية، وبعد نجاح الاستعمار في التوغل إلى الريف ومراقبة المعلمين والتلاميذ ضعف التعليم هناك أيضا وحوصر إداريا بالقوانين ولغويا بالفرنسية".

تدهور التعليم العربي الإسلامي في الجزائر، وكاد ينتهي نهائيا في سنة 1847م؛ فمثلا مدينة قسنطينة انخفض بها عدد الطلبة في مرحلتي التعليم الثانوي والعالي للجزائريين إلى 60 طالب، وعدد التلاميذ الجزائريين في المدارس إلى 350 تلميذ، بعد أن كانوا يصلون إلى 1400 تلميذ، إذ لم يعد الأهالي قادرين على الإنفاق على تعليم أبنائهم بعد أن صادرت الإدارة الفرنسية الأوقاف، وذلك بسبب غلاء الإنفاق.

ويمكننا أن نلاحظ أن التعليم الأهلي لم توفر له أدنى الشروط، لأن الهدف من التعليم إجمالا هو إيجاد لغة بديلة عن اللغة والثقافة العربية، حيث لا يمكن للجزائريين الارتقاء إلى مستويات عليا.

هذا ما أكدته مختلف الكتابات الفرنسية على التحول الذي أصاب التعليم العربي الإسلامي نتيجة الاحتلال من جهة، والاستيلاء على الأوقاف من جهة أخرى، وهجره العلماء والمعلمين أنفسهم من جهة ثالثة، فقد خربت المدارس الثانوية، وامتنع الجزائريون على ارسال أبنائهم إلى المدرسة الفرنسية، لأن المدرسة في نظرهم هي حيث يتعلم الطفل القرآن والصلوات وقواعد الدين، بينما المدارس الفرنسية لا تعلمهم إلا اللغة، وربما تعلمهم مبادئ دين آخر.

كانت السياسة التعليمية بالجزائر تكاد تكون منهارة خاصة بعد اصدار فرنسا لمجموعة من القوانين والقرارات، وذلك بسبب تخوفها من عودة انتشار التعليم العربي من بينها قانون 18 أكتوبر 1892 الذي نص على إمكانية فتح المدارس الحرة القرآنية وفقاً للشروط قاسية للحصول على الرخصة المطلوبة. وجدد هذا القانون في 24 سبتمبر 1904م بشروط أكثر تعسفا.

ووفق للقانون نفسه لسنة 1892 أدمج تعليم الزوايا في المدارس الابتدائية الفرنسية، وأخضعها للمراقبة والتفتيش، واشترط المرسوم أن يكون لكل زاوية سجل لتسجيل التلاميذ وعائلاتهم ومحل إقامتهم.

ويمكن تفسير هذ الحالة المزرية للتعليم العربي الإسلامي الأصلي بالإضافة إلى ما سبق ذكره إلى عدة عوامل، ارتبطت دائما بالاحتلال الفرنسي، وهي كالتالي:

-توقف الفرنسيين عن صيانة المساجد بل بدأ القيام بهدمها.

- لم تعد وظيفة المعلمين ورجال الدين مهمة بالنسبة للجزائريين، بسبب عدم وجود أجر كافي لها ،فقد قل الطلب عليها، بعد أن كان المعلمون يتنافسون للحصول على هذ الوظيفة في الجزائر خلال العهد العثماني، لما لها من امتيازات روحية واجتماعية ومالية.

-غلاء المعيشة أيام الاحتلال الفرنسي جعل الأولياء يوجهون أبناءهم للعمل وليس للتعليم.

-تدهور حالة المدرسين والمعلمين بسبب السياسة الفرنسية المتعمدة.

-رحيل التلاميذ القادرين على مواصلة تعليمهم العربي الإسلامي إلى الزوايا خارج مدينة المدن الكبرى كقسنطينة والجزائر وغيرها، والمناطق البعيدة التي لم يصل إليها الاحتلال الفرنسي.

وعليه يمكننا القول أن السياسة المجحفة التي اتبعتها السلطات الاستعمارية اتجاه التعليم العربي الحر خاصة والمجال الثقافي عامة، واصدارها مجموعة من القوانين الخاصة إزاء فتح المدارس والمساجد جعلت من العلماء ورجال الإصلاح وعلى رأسهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تتمسك بهدفها الأساسي وهو التعليم وتجعل منه برنامجها الحقيقي والفعلي.

محاضرات مقياس تاريخ الجزائر الثقافي 2

وقد ظهرت حركة الاصلاح الديني والتربوي والاجتماعي في الجزائر بزعامة عبد الحميد بن باديس في أوضاع مأساوية للشعب الجزائري من خلال محاولات المستعمر المستميتة لطمس معالم هويته الثقافية وتهميش أبنائه. إذ مع نهاية القرن 19 وبداية القرن 20م عرف المجتمع الجزائري ظهور مفكرين إصلاحيين درسوا بالخارج وعادوا إلى وطنهم ليساهموا في نهضته واصلاح أوضاعه، فبرزت الحركة الاصلاحية بين الحربين العالميتين الاولى والثانية بزعامة عبد الحميد بن باديس التي تمثلت مجمل أعمالها في:

- ✓ تطهير الدين الاسلامي من الخرافات والبدع.
- ✓ نشر العلم والمعرفة والوعي.
- ✓ بعث اللغة العربية وترقيتها من خلال التعليم الحر والصحافة.
- ✓ ارسال البعثات الطلابية وعودتهم كأساتذة ومصلحين.
- ✓ ظهور التعليم الحر في الجزائر الذي اهتم بتعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الاسلامي، واشتهرت منه عدة مدارس منها:

– مدرسة جمعية التربية والتعليم الاسلامية بقسنطينة التي تعد النواة الأساسية لمشروع التعليم الحر في الشرق الجزائري سنة 1917م.

–مدرسة دار الحديث تلمسان والتي تعد من أكبر مدارس جمعية العلماء في الغرب الجزائري والتي تأسست سنة 1937م.

–معهد الحياة الثانوية بغرداية والتي تأسست 1925م وساعدت الكثير من الطلبة على التعليم وارسال بعثات لاستكمال دراستهم في الزيتونة والمشرق العربي.

– المدرسة الاصلاحية بوهران تأسست أواخر 1937م أبرز مدرسيها محمد السعيد

الزاهري الكاتب العام لجمعية العلماء.

–الجمعيات والنوادي الثقافية: أهمها:

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 التي اهتمت بتربية النشء وفق شعارها: الجزائر وطننا والإسلام ديننا والعربية لغتنا. وهي جمعية إصلاحية حاولت بعث المجتمع الجزائري لأجل نهضة واعية.

محاضرات مقياس تاريخ الجزائر الثقافي 2

لقد انطلقت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سياستها التعليمية، من واقع المجتمع الجزائري الذ ي فقد كل مصادر المعرفة نتيجة، لسياسة التجهيل التي اتبعتها السلطات الاستعمارية في الجزائر، لذلك اتخذوا من المدرسة أداة رئيسية لمحاربة الاستعمار، فالعلماء اعتبروا التعليم اللبنة الأولى في يقظة الشعب كانوا ينظرون إلى

المجتمع نظرة واقعية، بحيث أن الثقافة العربية في الجزائر والتي تربط الفرد بماضيه

وحاضره قد أوشكت على الاندثار، وكاد المسلم الجزائري يفقد شخصيته العربية التي تميزه على شخصية الأوربيين، الذين يستهدفون إدماجه في كيان المجتمع الفرنسي، لذلك كانت حملتهم على الجهل عنيفة فاستحقت بذلك الأولوية في برنامج العلماء.

بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وإنشاء لجنة التعليم فيها، أصبحت المطالب تأتي من قبل الجمعيات المحلية، التابعة لها إلى إدارة الجمعية لاختيار المعلمين وتوجيههم إلى المناطق المحتاجة، ليشرعوا في تعليم الجزائريين المحرومين من أي تكوين، ولعل أول ما ميزه أنه لم يكن برنامج محدد وثابت ليشمل كل مدارس الجمعية، لكونه موحد من ناحية غايته وهو دفع التلاميذ لإحياء العربية وتعلمها وتعلم الدين الصحيح.

من هنا كان أمام الجمعية أن تؤد ي دورها، في الساحة الوطنية في هذا المجال،

وذلك لأن التعليم هو السبيل للوصول إلى الاستقلال فالأمة الجاهلة لا يمكنها الحصول على الاستقلال ولا المحافظة عليه، يقول السيخ محمد البشير الإبراهيمي: الأمة التي لا تبني المدارس تبنى لها السجون.

إن التعليم العربي بمفهومه العصري الصحيح، هو الذ ي أنشأته وقادته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برجالها وأبنائها وأنصارها، وإنها المهد الذي نشأ وتربى فيه الإسلام والعربية والوطنية الصادقة، ومن هذه التنشئة استمد الشعب الجزائري القوة التي قهرت ودمرت العدو الغاصب وساقته إلى الهزائم والانحدار ثم إلى الجلاء، وقد كان من الأهداف التي سعت إليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى تحقيقها عن طريق التعليم، هو القضاء على الخرافات والشعوذ ة والبدع والرجوع إلى الدين الصافي النقي، ثم القضاء على سياسة الدمج والفرنسة والتنصير.

إن نظرة الشيخ عبد الحميد بن باديس غير مخطئة حين قرر ما يلي: "إني أحارب الاستعمار لأنني أعلم وأهذب فمتى انتشر التعليم والتهذيب، في أرض أجدبت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير".

والتعليم العربي الحر من جهة ثانية كان رد فعل قوي لما أزمع عليه الاستعمار من الوصول إليه للقضاء على الجزائر، وفصلها عن حضيرة الدول العربية الإسلامية وإلحاقها بالنصرانية، لأنه عندما سيطر الجيش الفرنسي على الجزائر، كان يحمل في نفسه حقدا من أحقاد الحروب الصليبية المسعورة، وحين استقر به المقام وأصبح الوطن تحت إمرته وسطوته أخد يجند كل طاقته للقضاء على العقيدة الإسلامية أولا، وقتل اللغة العربية ثانيا ومحو الذات الجزائرية ثالثا، فكان أول ما فكر فيه في المرحلة الأولى للوصول إلى أهدافه أنه سعى في تفقير وتجهيل الشعب الجزائري، وتجريده من كل قوة مادية ومعنوية، ثم أوفد إليه إرساليات من المبشرين من " آباء وأمهات، وإخوان وأخوات" في أيديهم الصليب، الخبز، والدواء والثراء.

جاءت مدارس العلماء المصلحين كرد فعل للمدارس الاستعمارية التي كانت تحاول هدم مقومات الشخصية الجزائرية، بتعليم الجزائريين آداب الغربيين وتاريخ الغاليين ولغة الفرنسيين. وقد كانت رغبة جمعية العلماء في ميدان التعليم ملحة إلى العلم والإقبال عليه، فقام العلماء برسم خطة التعليم عن علم وعقيدة، وكانت غايتهم في ذلك خدمة الدين والعلم والوطن، وقد حثوا الناس على تعليم الصغار والكبار من البنين والبنات، كما كانت دعوتهم شاملة للأغنياء والفقراء على السواء.

قائمة المصادر والمراجع:

-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.

-أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر.

-مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع.